عثرة الصليب،
جهالة الصليب، وقوة الصليب[1]

❁ ❀ ❁

هذه مواقف ثلاثة للصليب إزاء الإنسان كشفها القديس بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (١كو ١: ١٨-٢٥):

أولًا: عثرة الصليب

أنت يا رب قلتَ: "ويلٌ للذي تأتي بواسطته العثرات" (انظر: لو ١٧: ١)، فكيف يكون الصليب عثرة؟ إنَّ الصليب في ذاته ليس عثرة، لكنه لليهود عثرة. والتهوُّد حركة رديئة باطنية في نفس الإنسان، يُعثرها الصليب. فحبُّ الرئاسة والمال والأنانية والشكلية والظهور على أزقَّة الشوارع، كلها حركات يهودية يقف أمامها الصليب دائمًا عثرة.

يا نفسي:

عندما تتطلَّعين لحبِّ الرئاسة، فإذ بيسوع يقول لك: «... أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» (مت ٢٠: ٢٨).

الصليب عثرة لكِ – يا نفسي الأنانية – عندما تتطلَّعين ليسوع المصلوب باذلًا ذاته بلا حركة على الصليب.

عثرة لكِ، يا نفسي، المُشارِكة لصيارفة اليهود وباعة الحمام، عندما تتطلَّعين إلى يسوع على الصليب مُجرَّدًا حتى من ثيابه.

عثرة لكِ، يا نفسي المُحِبَّة للظهور، عندما ترين يسوع مرذولًا مصلوبًا يُحذِّرك من الصلاة في الأزقَّة وزوايا الشوارع.

عثرة لكِ، يا نفسي، عندما لا تحتملين مَنْ يخدش كرامتك، لا في المنزل ولا في العمل ولا

(١) مقالة للقديس القمص بيشوي كامل، نُشرت في مجلة مرقس، عدد أكتوبر ١٩٧١.

حتى في خدمة الكنيسة.

عثرة لكِ، يا نفسي، عندما تشتهين المتَّكأ الأول، وصوت الرب يدعوكِ للمتَّكأ الأخير.

عثرة لكِ، يا نفسي، التي تُقيمين حفلاتك لأصدقائك وأغنياء جيرانك، ولا تدعين العُرج والجُدع والمساكين.

يا نفسي إنَّ نكسة اليهود تُهدِّدك كل يوم، وسيظل صليب ربنا عثرة لك عندما ترتدِّين عن حياة الحب والاحتمال والخضوع إلى حياة الكراهية وسرعة التعب والهروب من الباب الضيق.

ربي يسوع: أنتَ أوصيتني بالحق أن أحمل صليبي كل يوم وأتبعك، وبلا شكٍّ كان قصدك أن تحميني من أمراض التهوُّد التي تُهدِّد نفسي الشقيَّة.

أمَّا الكنيسة: فقد ظلَّت مُهدَّدة باليهودية؛ ولكنها انتصرت على نكسة التهوُّد بعثرة الصليب. وهذا ما أعلنه الرسول بولس بصراحة أنه إذا خضع للفكر اليهودي والختان يجعل عثرة الصليب تنتفي (غل ٥: ١١). وحارَبت الكنيسة المُلك المادي الألفي، وجاهدت مدرسة الإسكندرية في ذلك، مؤكِّدة أن ليس لنا هنا مدينة باقية، ولكن لنا هنا صليب نحمله وباب ضيِّق ندخله.

وفي القرن العشرين: فإنَّ مؤتمرات الكنائس التي تفاهمت مع الفكر اليهودي بعيدًا عن الدعوة للتوبة، هي بالحقيقة قد ألقت سلاحها – أي صليبها – لأن عثرة الصليب قد انتفت وخرجوا من المؤتمرات متصافحين، ولكن بدون صليب.

ثانيًا: جهالة الصليب

ربي يسوع، أنت أعلنتَ لي أن الصليب هو حكمة الله وقداسة وفداء. إنه حكمة الله في سرٍّ: «لأَنْ لَوْ عَرَفُوا لَمَا صَلَبُوا رَبَّ الْمَجْدِ» (١كو ٢: ٨).

عندما يعجز الإنسان عن إدراك عظمة أمرٍ من الأمور، يدَّعي حقارة هذا الأمر، وهكذا فإن سرَّ التجسُّد والفداء هو من الأسرار الإلهيَّة العالية التي لا يقدر الإنسان على إدراكها، إلَّا إذا أعلنها الروح القدس له. فالإنسان عندما يُدرك أمرًا أو فلسفةً أو اختراعًا بعقله يكون سيِّد هذا الاختراع. وللأسف لقد ظنَّ الإنسان أنه يستطيع أن يفهم الله بعقله،

وبذلك يكون سيِّدًا له، ولم يعلم أن حكمة الإنسان جهالة أمام الله.

عندما تكلَّم الرسول بولس عن آلام المسيح وقيامته قال له فيلكس الوالي بصوتٍ عظيم: «أَنْتَ تَهْذِي يَا بُولُسُ! الْكُتُبُ الْكَثِيرَةُ تُحَوِّلُكَ إِلَى الْهَذَيَانِ» (أع ٢٦: ٢٤). أما الفلاسفة اليونانيون في أثينا فقالوا عنه: «تُرَى مَاذَا يُرِيدُ هذَا الْمِهْذَارُ أَنْ يَقُولَ؟» (أع ١٧: ١٨).

وفي قرننا العشرين: سيظل الصليب جهالة، سيظل الصليب هو الفرق الواضح بين يسوع المسيح وكل العالم وفلسفاته ودياناته. ستظل عقائد الثالوث والتجسُّد والصَّلْب والقيامة جهالة للآخرين وستعجز عن إقناع إنسانٍ مُلحِد لا يؤمن بهذا الإيمان، وسيتهمنا بالجهل.

وفوق ذلك، فالمسيحي الذي يتمسَّك بالحقِّ في حياته وعمله، يتَّهمه زملاؤه أنه غير منفتح الذهن. والأخت المسيحية في لبسها وسلوكها، يتهمونها بالرجعية. والمسيحي المُتسامح يتهكَّمون عليه. والإنسان المؤمن، يصفونه بأنه غير واقعي. والذي يترك العالم ليعبد الله في دير، يتهمونه بالهروب. والذي يُضيِّع وقته وماله في خدمة المسيح يقولون له: لماذا هذا الإتلاف؟

ربي يسوع: من البداءة علَّمتني أن مسيحيتي يجب أن تبدأ بِحَمْل الصليب كل يوم. سأحمله وأشهد لك ضد يونانية العالم رغم كل ما سينعتونني به إني جاهل، فالصليب جهالة.

أمَّا الكنيسة، فالعالم يفرض عليها إنجيلًا اجتماعيًّا وأخلاقيًّا بدلًا من أن يجعل الأخلاق والنشاط الاجتماعي يكونان ثمرة للحياة الروحية. لقد انزلقت الكثير من الكنائس ووقعت في فخ العلمانية. نعم كنائس الغرب تُقيم الجامعات والمستشفيات، ولكنها لا تتحدَّث عن التوبة.

ربي يسوع، لا تسمح أبدًا أن ترمي كنيستنا صليبها، وتسير وراء كنائس الغرب بدعوى التطوُّر وعدم التأخُّر عن مسيرة العالم. اجعلها تتمسَّك بصليبك للنَّفَس الأخير.

ثالثًا: قوة الصليب

١ – الصليب في طبيعته قوة وليس ضعفًا وهزيمة:

أراد هيرودس – مُمثِّل الكنيسة المختلطة بالعالم – أن يسمع كلمة من يسوع، ولكن يسوع رفض بقوة، لأنه لا شركة بين الحقِّ القوي والثعلب الماكر المُخادِع. سأل بيلاطس

يسوع عن الحق، فلم يُجِبه، لأن الحقَّ واضحٌ، فهدَّده بيلاطس بالصليب، فقال له يسوع: «لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ، لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ» (يو ١٩: ١١).

تمنَّى الفرّيسيون ورؤساء الكهنة أن يُجاملهم يسوع في فرّيسيتهم ورِيائهم، ولكنه شبَّههم بالقبور المُبيَّضة وهي من داخل مملوءة كل نتانة.

تمنَّى الصيارفة لو قَبِلَ منهم يسوع رشوة ولا يطردهم، ولكنه غار على قداسة بيته، وقَلَبَ موائدهم.

عندئذ تكتَّل عليه العالم في صورهِ المختلفة وهدَّدوه بالصَّلب، لكنه حَمَل الصليب، ولم يتنازل عن مبدأ واحد من مبادئه.

كان الصليب شهادة على فشلهم جميعًا.
كان الصليب شهادة على انتصار مبادئه عليهم.
كان الصليب شهادة على ضعف العالم، وعلى قوة المسيح.

إنَّ أبناء يسوع ينبغي أن يكونوا أقوياء، والشاهد على قوتهم هو الصليب، فليس الصليب مجرَّد لون من التأمل الروحي الجميل، ولكنه أيضًا احتمالٌ للألم من أجل الوقوف ضد العالم. ولم يكن الصليب في حياة الرب نتيجة لأعماله، ولكنه كان جزءًا من خدمته عندما قال: «يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَأَلَّمَ كَثِيرًا» (مت ١٦: ٢١).

يسوع إلهي: علِّمني عندما أكون في شدَّة في هذا العالم، أن لا أحسَّ بأني مهزومٌ، ولكن منتصرًا بقوة صليبك.

٢ – والصليب في طبيعته أقوى درجات الحب وأعمقها:

حُبٌّ لصالبيه، حُبٌّ للخطاة. حُبٌّ للمنتهى، حُبٌّ للبذل بلا مقابل.
الصليب هزيمة للكراهية، فليس في الصليب ذرَّة واحدة منها.

٣ – والصليب في طبيعته أقوى درجات الغَلَبَة على الشيطان والموت والعالم.

ما أرهب هذا الموقف، عندما يضع الكاهن الصليب على إنسانٍ به روح نجس، ويخرج منه. ستجد الروح النجس يصرخ بشدَّة ويخرج خوفًا من الصليب.

(البقية صفحة ١٩)